الظواهر السائلة في فلسفة زيجمونت باومان-العيش في زمن الخوف واللا أمن-

Liquid phenomena in the philosophy of Zygmunt Baumann-Live in a time of fear and insecurity-

د.عبد الغاني بوالسكك، جامعة الحاج لخضر باتنة 1-الجزائر

D. BoussekekAbdelghani, Université Batna 1 LHadj Lakhdar ALGERIE

الملخـص: بعد التحولات الحداثية التي عرفها الفكر الغربي والتي انتقل بفضلها من عصور الظلمات إلى أنوار الفكر، عرفت أوروبا الحداثة كظاهرة أو كمشروع جعلها تعيد التفكير في كل الظواهر والعلاقات وأدت إلى التفكير في زمن ما بعد الحداثة، حيث استطاع الفكر الغربي أن يؤسس لمرحلة الحداثة بمراجعات ومشاريع على مستوى الفكر والعمل، وهذا ما جعل الفيلسوف وعالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومان يبدع مفاهيم جديدة حول الحياة والعنف والثقافة، ليؤكد أن زمن الحداثة قد دفع إلى التفكير في الظواهر التي كانت تمتاز بمفهوم جامد صلب، وبفعل تحولات الحداثة أصبحت مفهوما سائلا، ومن بين هذه المفاهيم مفهوم الخوف واللا أمن، من هنا فطبيعة هذا المقال تنصب في فلسفة الظواهر الاجتماعية التي تأثرت كغيرها بمعطيات الحداثة وما بعد الحداثة.

الكلمات المفتاحية: الخوف، اللا أمن، الحداثة، الظواهر السائلة، ما بعد الحداثة.

Abstract: After the modernist Transformations experienced by Western thought, thanks to which it moved from the ages of darkness to the lights of thought, Europe defined modernity as a phenomenon or as a project that made it rethink all phenomena and relationships and led to thinking in the post-modern era, where Western thought was able to establish the stage of modernity with reviews and projects on The level of thought and action, and this is what made the Polish philosopher and sociologist Zygmunt Baumann invent new concepts about life, violence and culture to confirm that the time of modernity has led to thinking about the phenomena that were characterized by a solid rigid concept, and by the transformations of modernity it has become a fluid concept, and among these The concepts are the concept of fear and insecurity. Hence, the

nature of this article focuses on the philosophy of social phenomena that, like others, were influenced by the data of modernity and postmodernism.

Key words: words: fear; insecurity; modernity; Liquid; phenomena; post modernity.

مقدمة:

بعد أن خرجت أوروبا من عصر الظلمات إلى عصر الأنوار بدأ الفكر الأوروبي يعرف نهضة فكرية وعلمية أدت إلى ظهور الحضارة الغربية، ومما زادها تطورا نتائج الثورة الصناعية، حيث شهدت أوروبا تراجعا كبيرا للفكر الخرافي والأسطوري واستقلالية عن الكنيسة، منذ ثورة غالي غاليلي وكوبرنيكوس، وهذا قادها إلى التفكير في التحرر من الفكر الظلامي والرجعي والذي سادها طيلة عصور وسطى مظلمة، وذلك بإعطاء أولوية للفكر الحر والفكر العلمي، والذي بفضله خرجت أوروبا من عصر الظلمات، وأعلن دخولها في العصور الحديثة، ومن هنا بدأت في التفكير في التحكم في الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان، فكانت الحداثة بكل مظاهرها، ودخل الإنسان الغربي في مرحلة الحداثة والتحديث فأبدع كل الوسائل التي تمكنه من الحياة برفاهية وشهدنا في هذه الفترة تراجعا للقيم والدين والأخلاق، ولم يعد يؤمن إنسان الحداثة إلا بمغرياتها ونسي ذاته، بل وحتى جانبه الروحي وظهرت أفكار علمانية تنادي بضرورة فصل الدين عن الدنيا بصورة نهائية، لأن العلم أعلن انتصاره، ومما زاد هذا الطرح قوة محاولة الغرب عولمة نموذجه الحضاري في العولمة على كل الدول والأمم والحضارات، على اعتبار أن الحداثة لا مفر منها والعولمة تفرض ذاتها بقوة، فظهر الإنسان العالمي والقيم العالمية، وأعلن نهاية التاريخ وسيطرة الرأسمالية والليبرالية، وذابت الفوارق بين الشعوب عن طريق وسائل الاتصال والإعلام، وظهرت الثقافة الغربية كنموذج تحاول أن تعمم على باقي الأمم، على اعتبارها النموذج الحداثي الذي أبدع الحداثة، ومن ثمة فرض الحضارة الغربية بكل مقوماتها على باقي الحضارات، وجعل العالم قرية واحدة، إلا أن ذلك أدى إلى ما عرف بصدام الحضارات والثقافات، ومن نتائج العولمة والحداثة السباق نحو التسلح وظهور المجتمع الاستهلاكي، مما اثر على الإنسان والبيئة وظهر من ينادي بما بعد الحداثة، لأن الحداثة خلقت لدى الإنسان نوع من القلق والخوف واللاأمن والمراقبة السائلة وهذا بدوره غير كثير من العلاقات والمفاهيم بين المجتمعات والشعوب، ومن هذه المفاهيم مفهوم الثقافة والحداثة والعنف والإنسان والقيم والحب والأخلاق والحياة وحتى الشر، حيث لا حظ الفيلسوف البولندي زيجمونت باومان أن هذه المفاهيم التي تدخل في أساس الفهم الإنساني لا بد أن تتغير وفقا لمعطيات الحداثة ولاحظ أن مفهومها الكلاسيكي ثابت لا يتغير، وبما أنه انتقلنا من زمن التحديث إلى الحداثة لا بد لهذه المفاهيم أن تتغير، ووضع ما أسماه بمصطلح السيولة، ما هي التحولات التي فرضتها الحداثة؟ وكيف انتقلنا بهذه المفاهيم من الصلابة إلى السيولة، وكيف انتقل الإنسان من الخوف الصلب إلى الخوف

السائل واللاأمن في زمن الحداثة؟ ما دور المراقبة السائلة في زيادة الخوف السائل أو نقصانه؟ وماذا ننتظر من زمن ما بعد الحداثة؟

وعليه اعتمدت المنهج التحليلي النقدي لتحليل ونقد أفكار باومان في تحولات الحداثة التي أدت إلى الانتقال من الصلابة إلى السيولة في المفاهيم والعلاقات والقيم، ولهذا كان الهدف تبيان ما أنتجته الحداثة من متغيرات وتأثيرات على الإنسان وذاته وأفكاره وقيمه وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وحتى علاقته مع البيئة، ونقد كل منتجاتها، كما طرحت هذه الأفكار ضرورة الانتقال من زمن الحداثة إلى زمن ما بعد الحداثة، لأن منتجات الحداثة قد بينت تصاعد ظاهرة الخوف بمعناه السائل والذي أدى إلى الشعور كذلك باللاأمن مما يعني أن الحداثة أخلفت بوعودها للإنسان الذي كان يطمح إلى التقدم والرفاهية والعالمية والكونية والسعادة، وباعتبار زيجمونت باومان فيلسوف وعالم اجتماع بولندي اهتم بالظواهر السائلة بل هو من نحت هذا المصطلح، وباعتباره من رواد ما بعد الحداثة، وعلى اعتبار أن الدراسات حوله وحول فكره تكاد تكون منعدمة فقد ارتأيت أن أقدم تعريفا موجزا بهذا الفيلسوف العالم فمن هو زيجمونت باومان؟

1. زيجمونت باومان المولد والنشأة ومصادر فكره:

زيجمونت باومان **Zygmunt Bauman**فيلسوف وعالم اجتماع بولندي ولد في 19 نوفمبر1925، في بوزنان ببولندا، من أبوين بولنديين يهوديين(ويكيبيديا، 2009)
انتقل إلى الإتحاد السوفياتي عند بداية الحرب العالمية الثانية وعمره أربعة عشرة عاما وعندما بلغ الثامنة عشرة عاما حارب في صفوف الفرقة البولندية في الجيش الأحمر ضد جيش هتلر، وبعد عودته إلى بولندا بعد الحرب، عمل باومان ضابطا سياسيا في الجيش البولندي خلال أواخر الأربعينيات وأواخر الخمسينيات، وفي عام 1948 تزوج جانينا لوينسون (**JanninaLeuinson**) (جون سكوت، 2009، ص85-86).

وقد اختبر زيجمونت باومان رعب الحرب، وعاش تجربة المنفى المؤلمة هذه التجارب جعلته نصيرا للمستضعفين وناقدا لاذعا للأوضاع الراهنة، اشتغل باومان في المخابرات العسكرية البولندية كمدرس في العلوم السياسية وخلال تلك الفترة (1953-1939)درس السوسيولوجيا فيأكاديمية وارسو في بولندا(رشيد العلوي2017)على يد كبار السوسيولوجيين البولنديين أمثال ستينسلو أوسوسكي وجوليان هوتشفيلد، غير أنه سيغادر قسم السوسيولوجيا نحو قسم الفلسفة، بسبب حظر علم الاجتماع في بولندا بحجة أنه علم اجتماع برجوازي وفي عام 1954 عمل محاضرا في جامعة وارسو، ثم أصبح أستاذا بروفيسورا في عام 1964 حيث استقر فيها إلى عام 1968، أين طرد رفقة عائلته في نفس السنة بعد شن الحزب الشيوعي حملة اتهامات بمعاداة السامية، وبذلك توجه إلى إسرائيل أين اشتغل كأستاذ محاضر في عدة جامعات بها حتى عام 1971، وبعدها غادرها أول ما جاءه عرضا للتدريس بجامعة ليدز ببريطانيا، لأن باومان أيقن حقيقة كونه ضحية دولة قومية عضوية (وهي بولندا) وبالتالي لم يشأ أن يقترف جرم القوميين في دولة قومية عضوية عنصرية (وهي إسرائيل)، وهذا ما صرحت وأفصحت عنه زوجته

جانينا لوينسون **Jannina Leuinson** « كانت إسرائيل تحكمها العصبية القومية، وها نحن قد فررنا للتو من القومية "البولندية" ولذا لم نرض أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته (بحق الفلسطينيين)، في دولة قومية أخرى» ولم يتردد باومان في الرحيل إلى بريطانيا فور تلقيه عرضا للتدريس بجامعة ليدز وهناك تشكلت معالم مشروعه النقدي للحداثة الغربية ونزعتها القومية العنصرية(باومان،2014، ص28).

كما شغل أستاذا منذ 1971 في قسم علم الاجتماع، وأصبح فيما بعد رئيسا للقسم، ومنذ ذلك الوقت كانت كتب باومان تنشر باللغة الإنجليزية على وجه الحصر، عُدَّ منذ العقد التاسع من القرن الماضي، أحد أبرز أوجه حركة مناهضة العولمة النيوليبيرالية (رشيد العلوي2017) بعد وفاة زوجته جانينا عام 2009 أعاد الزواج من الباحثة في علم الاجتماع **"الكسندر حاسينكا"** وعاشت معه وبناته الثلاثة وأحفاده حتى وفاته المنية في09 يناير 2017 بمدينة ليدز عن عمر يناهز 91 سنة(ويكيبيديا).

2.تحولات الحداثة:

لقد عرف الغرب الحداثة منذ أن قطع الصلة بكل ما هو غير عقلاني علمي لينتقل إلى عصر الأنوار الذي مجد العقل والعلم، ولقد قدمت الحداثة وعود كبرى للإنسان الحديث والمعاصر في الرقي والتقدم والتطور، فلم يعد يؤمن إلا بالعقل والعلم، لكن بالمقابل خلقت لديه شعور بالقلق والخوف بخصوص القيم والذات والمجتمع والحياة، بل وإنسانيته الضائعة ولذا نجد الكثير من الفلاسفة الذين دافعوا عن المشروع الحداثي يتراجعون لما لاحظوه من تغول الحداثة التي تريد أن تلتهم الإنسان في كل أبعاده، ففكروا في مشاريع تنقذ الإنسان من نزعته الاستهلاكية المدمرة التي زرعتها الليبرالية الجديدة، وتعيد إليه القيم المفقودة وتنتشله من الاستلاب والاغتراب، ومن هؤلاء **زيجمونت باومان** الذي أدرك بان الحداثة كمشروع قد عرف تحولات وتغيرات وتطورات، في عالم مقدر لنا أن نعيش فيه، لقد أصبح الإنسان غريب في وطنه غريب عن ذاته، غريب عن مجتمعه، فلا بد من العودة إلى الذات وإلى الإنسان في كل أبعاده خاصة القيمية والأخلاقية في ظل عولمة حكمت بتصدع الدين وإلغاء كل الفوارق بين الأمم والثقافات والحضارات، في محاولة لفرض نمط واحد متجاهلة التعدد والتنوع والاختلاف بين الشعوب والأمم، إننا بقدر ما نعيش عصر النهايات بقدر ما نشهد ولادة تاريخ وإنسان ومجتمع جديد، وذلك بجعل الحداثة أكثر ديمقراطية تؤمن بالعدالة والحرية للإنسان وللإنسانية جمعاء، مبتعدة عن القلق والخوف واللاأمن الذي يشعر بها الإنسان الحداثي الذي يطمح إلى زمن ما بعد الحداثة، التي يمكن أن تعيد له قيمه وإنسانيته لذا فقد وجه باومان النقد لكل معطيات الحداثة ليكتشف أن الحداثة قد غيرت كثير من المفاهيم والمقولات الصلبة لتصبح سائلة، فظهر الخوف السائل والحب السائل والثقافة السائلة وغيرها، تماشيا مع معطيات الحداثة السائلة هي بدورها، إنها الحياة السائلة في زمن الحداثة السائلة التي يقول عنها باومان "فقد تحولت فكرة "التقدم" إلى واقع مرير وجبرية متطرف بعدما كانت أبرز تجليات التفاؤل والأمل الكبير بتحقيق السعادة الدائمة للجميع، فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشر بالراحة ولا السكينة، بل ينذر بالشدة والمشقة الدائمتين ويمنع أية لحظة

للراحة...فلم تعد فكرة التقدم توحي بالآمال الكبرى والأحلام الجميلة، بل صارت تشير إلى معاناة من الأرق وكوابيس الخوف من التخلف عن ركب السائرين" (زيجمونت باومان،2017، ص34)، إن السؤال الذي أرق كثيرا زيجمونت باومان رغم إيمانه بأنه لا بد أن نعيش في هذا الواقع الذي فرضته العولمة والحداثة بكل معطياته هو فكيف تبدو الحياة السائلة في زمن الحداثة؟

3.في الحياة السائلة:

لقد تغير مفهوم الحياة، حيث غيرت معطيات الحداثة والعولمة كثير من المقولات والمفاهيم، فلم تعد الحياة هي العيش في أمان، ولم تعد هي البحث عن السعادة والرفاهية فبالرغم من الوعود الكبيرة التي قدمتها الحداثة في مشروعها من أنها وعدت الإنسان بحياة أكثر رفاهية ومتعة وتطور وتقدم، إلا أنها خلقت بالمقابل حياة مليئة بالخوف والقلق والاضطراب والانتحار والموت والعنف والقتل والإرهاب وأفول القيم والأخلاق، إنها إحدى أكبر نتائج العولمة والحداثة، وما وعدوا به من تقدم، فهو كما وصفه باومان "كلما تقدم المجتمع الحديث السائل تراجع بها الشهداء والأبطال الذين يجدون مأواهم الأخير في هذه الأيام بين الشعوب التي مازالت تحارب ما يبدو لكثير من أهل الكوكب (وربما لأغلبيتهم) حربا ضد ظروف يشق تحملها، بل وحربا خاسرة بالفعل، إنها حرب ضد القوى العسكرية والمالية العولمية الرهيبة التي تحاصر الأراضي البكر الباقية حتى تغرس نموذج حياتها الجديدة أينما ذهبت، وهي حياة تعني لمن يلقونها نهاية الحياة كما يعرفونها، بل وربما نهاية الحياة في حد ذاتها"(زيجمونت باومان، 2016، ص75).

إنها لنهاية مؤلمة يفتقد فيها الإنسان لكل قيمه، بل ولحريته ولسعادته التي طالما حلم بها في مجتمع ديمقراطي تقوده نخبة تمتلك ثقافة راقية، يزول فيه العنف والدمار وتنتهي فيه أزمات الإنسان المعاصر التي زادت بفعل فقدان الحرية والخوف واللاأمن، بل والخضوع لسيطرة الثقافة الاستهلاكية التي جعلت الإنسان ذو بعد واحد كما يقول **هربرت ماركوز**، إننا إذا أردنا أن نبني مجتمعا حديثا فعلينا أن نضع في مشروعنا هذه الأبعاد بالموازاة مع معطيات الحداثة الصلبة، لننتقل إلى حداثة سائلة، تؤمن بالسعادة والتسامح بين الناس، وكما يصفها باومان بقوله: "الحياة السائلة نحياها عادة في مجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال...كما أن الحياة السائلة تماما مثل المجتمع الحديث السائل، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظل على حالها وقتا طويلا...إن الحياة السائلة حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرة، ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة"(زيجمونت باومان، ص21- 22).

ونتيجة لمغريات الحياة السائلة في زمن الحداثة فإن باومان يؤكد أنه بقدر السعي وراء هذه الحياة بقدر ما تزداد المخاطر ويزيد الخوف من المستقبل ومن زوال السعادة، إننا أمام حياة حداثية تمتاز بالسرعة والتسارع، تضعنا مباشرة أمام مجتمع استهلاكي لا يتوقف وبالتالي لا يمكن أن نعيش هذه الحياة بعيدا عن الخوف وهو ما يؤكده باومان بقوله: "فليت حياتنا خالية من الخوف،

والزمن الحديث السائل الذي تعاش فيه حياتنا ليس خاليا من الأخطار والتهديدات، بل إن الحياة بأسرها في هذا الزمن هي صراع طويل خاسر على الأرجح ضد إمكانية التأثير السلبي المحتمل للمخاوف...باتت الحياة بحثا مستمرا واختبارا دائما للسبل والأدوات التي تعيننا على منع وقوع الأخطار"(زيجمونت باومان، ص31)

ولقد منحت الحداثة السائلة للإنسان الحرية أكثر من أي وقت مضى، ولكن هذه الحرية سلاح ذو حدين، فقد ارتقت بالفرد والمجتمع نحو التحرر والتخلص من كثير من السيطرة والقوة وألهمته كيف يتحرر من الطبيعة ومن غرائزه، وحتى من كثير من الأنظمة التسلطية وبعض المظاهر الاجتماعية، وبالمقابل أفقدت الإنسان الأمن والسعادة والراحة النفسية فأصبح أكثر قلقا واضطرابا وخوفا، بل ومعاناة، ولهذا يرى باومان "أن الشيء الوحيد المهم في اعتبارنا حرا والذي يجعلك تحافظ على أن تكون كذلك هو وجود "المجتمع الحر" أي مجتمع الأفراد الأحرار الذي لا يحرم عليك ولا عنك أن تفعل وفق رغباتك، ولا يعرضك للعقاب على مثل تلك الأفعال"(زيجمونت باومان، ص16).

4.في الحرية:

لا يمكن تصور الإنسان الحر إلا في مجتمع حر، إنها القاعدة التي يؤمن بها الفلاسفة وعلماء الاجتماع، والحرية في مجتمع الحداثة السائلة كما يرى باومان لا يقصد بها أن تفعل ما تشاء ولا تعني غياب كل الضوابط الاجتماعية والقيود الأخلاقية، بل على العكس من ذلك هي أن تفعل وأن تعيش وفق هذه الضوابط والقيود هو معنى الحرية الحقيقي، فبقدر ما يتحمل الناس مسؤولية أفعالهم بقدر ما يبرهنون على حريتهم، وهو ما يؤكده باومان في قوله:"ويكون الناس أحرارا بشكل أساسي باعتبارهم يتحملون مسؤولية نتائج أفعالهم، وفهم الحرية قد يستمد من بعض العقائد أو المعتقدات الأخلاقية المؤسسة دينيا أو المبينة قانونا أو بشكل فلسفي، كثيرا ما يكون الناس أحرارا بصورة أساسية، باعتبار حياتهم يمكن أن تكون لا شيء إلا مشروعهم الخاص، ولايتصورونها باعتبارها سلسلة تنازلات أو خضوع للضروريات" (زيجمونت باومان، ص55)

إنه المفهوم الجديد للحرية السائلة في مجتمع سائل، فرضته الحداثة السائلة بكل معطياتها وعليه:"إن تاريخ الحرية يقوم على سلسلة إعادة الصياغة وإعادة التعريف...فتاريخ الحرية يقيم جسرا يمتد فوق حسب المدى العريض للتشكيلات الاجتماعية بتعارضاتها الدقيقة وصراعات القوة"(زيجمونت باومان، ص ص56-57).

ولقد استطاع الإنسان الحداثي أن يكتسب كثير من الحرية خاصة الحرية الفردية والاقتصادية، وهي الحرية التي بنيت عليها كثير من الأنظمة السياسية والاقتصادية، وعرف إنسان الحداثة بعض الرفاهية والسعادة التي بحث عنها، ولكن باومان لاحظ إن الحرية في هذا المجتمع المعاصر والليبرالي تحديدا تفرض أن يكون البعض أحرار على حساب البعض الآخر، وبالتالي فهي حرية مزيفة، وهنا تكمن المفارقة في أنه "يوجد غموض عرضي في الحرية في شكلها

الحديث المقترن بالرأسمالية، تتطلب فاعليه الحرية أن يبقى بعض الناس الآخرين غير أحرار، فأن تكون حرا يعني أن يكون مسموحا بإبقاء الآخرين غير أحرار وأن تكون قادرا على ذلك، وهكذا فالحرية في حداثتها شكل محدود اقتصاديا لا يختلف عن ما قبل تطبيقاتها الحديثة فيما يتعلق بمضمون علاقتها الاجتماعية، أنها تكون كما كانت من قبل انتقائية، وربما هي تتحقق بشكل صحيح عند جزء من المجتمع فقط، إنها تشكل أحد القطبين في العلاقة التي قاعدتها نظامها المعياري والإجبار والتقييد قطبها الآخر"(زيجمونت باومان، ص80).

هذا ما تعنيه الحرية الاقتصادية، أما الحرية الاجتماعية أو الحرية بمفهومها الأخلاقي، في التي تفترض أن الإنسان باستطاعته أن يختار الخير والشر، باعتباره كائن أخلاقي، وبالتالي يستطيع أن يختار، ولذا فهو كائن مسؤول عن اختياراته، فلا يجب أن نقوم بالفعل ثم نتهم الإله بأنه من فرض علينا القيام بالفعل، فالله بريء والناس هم المسؤولون عن اختيارهم الحر، وهذا المفهوم الأخلاقي للحرية هو الذي يرتبط بالإنسان وإرادته ومصيره، إذ يتوفر عليه اختياره بين الخير والشر، وتحمل المسؤولية، يقول باومان في ذلك "وفقا لبيلاجوس"جعل الله الناس أحرارا" ولكونه جعلهم هكذا فإن الناس تستطيع الاختيار بين الخير والشر ووفقا لإرادتهم إنه أيقظهم ليعيشوا من أجل خلاصهم أو هلاكهم، ولكونهم أصبحوا أحرارا ووهبهم الإرادة الحرة ، فإنهم يتحملون تماما مسؤولية أفعالهم، حقا إن الله بقدرته الشاملة وهب الناس هبة لا ترد هي هبة الإرادة الحرة، وبذلك وضع الله مصير الناس في أيديهم وقرر رفض كل قوة فوق سلوكهم وبالتفويض أو بالوكالة"(زيجمونت باومان، ص59-60).

وعليه لا يمكن تصور إنسان حر إلا في مجتمع حر، هذه الحرية التي يتكلم عنها باومان هي الحرية الإنسانية التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يكون مسؤولا وقادرا على الاختيار ولهذا نجده يقدم نقدا للحرية في المجتمع الليبرالي، وحتى الاشتراكي، ولقد أدت هذه الحرية الحداثية السائلة إلى مجتمع مفتوح، كما أثرت في الإنسان وسلوكياته، وفي المجتمع وقيمه وظواهره، فبعد الغزو العولمي وتحولات الحداثة، ظهر الإنسان الحداثي الجديد، وتغيرت كثير من سلوكياته بتغير أفكاره التي فرضتها عليه العولمة والحداثة، فظهر العنف السائل والثقافة السائلة، وأصبح إنسان الحداثة أكثر خوفا من ذاته ومجتمعه ومستقبله.

5.في الخوف السائل:

في نظرنا لا يوجد عالم فيلسوف حلل ظاهرة الخوف واللاأمن مثل زيجمونت باومان حيث حلل هذه الظاهرة وبين كيف تغيرت من الصلابة إلى السيولة، نعم هناك من حلل هذه الظاهرة من الجانب النفسي كسيغموند فرويد، ومن الجانب الفلسفي جان بول سارتر، ومن الجانب الاجتماعي إميل دوراكايم، وغيرهم، وهذا ما يسميه زيجمونت باومان بالتحليل الصلب لظاهرة الخوف واللاأمن، الذي يركز على الخوف الطبيعي الغريزي وحتى الاجتماعي، أما الخوف اليوم الذي نشأ نتيجة تحولات الحداثة وظهور المجتمعات الحداثية وما بعد الحداثية مجتمعات الاستهلاك، فهو خوف سائل، انه خوف فرضته تيارات العولمة وانتقال المجتمعات إلى مجتمعات حداثية،

وتطور الرأسمالية والليبرالية، وتمجيد النزعة الفردية، وتفكك العلاقات الاجتماعية، وانهيار القيم الأخلاقية "لا شك أن العولمة أصبحت الآن حتمية وفي مسار يستحيل عكسه، لقد تم الوصول إلى نقطة اللاعودة وتم تجاوزها، لا عودة الآن، إن علاقاتنا فيما بيننا واعتمادنا على بعض صار عالميا، كل ما يحدث في مكان يؤثر على حياة الناس وفرصهم في العيش في مكان آخر، حسب الخطوات التي تتخذ في مكان ما، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل في كل مكان آخر، لا حدود سيادية مهما كثرت أو كثر سكانها وإمكاناتها تستطيع بمفردها أن تحمي ظروفها المعيشية أو أمن سكانها اعتماد بعضنا على بعض يحدث علىامتداد الكرة الأرضية" (زيجمونت باومان، 2016، ص46).

إنه زمن اللاأمن الذي فرضته الحداثة الغربية بمنطقها التداولي، عن ماذا يبحث الإنسان الحداثي العولمي؟ يتساءل زيجمونت باومان، هل على الوفرة والرفاهية؟ هل على السيادة والسيطرة التي جعلته يوما يضن أنه سيصبح إلها هل يسعى وراء المادة والاستهلاك بعيدا عن قيمه الروحية والأخلاقية، ماذا قدم له التطور؟

إن اضعف مخلوق يمكن أن يشعر الإنسان بالخوف، بل وبالرهاب وهو أعلى درجات الخوف إن أدق جرثومة أو ميكروب يمكن أن يقضي على الإنسان ويشعره بالخوف الرهيب كما يحدث مع فيروس كرونا، لقد عرت هذه الأمراض الإنسان من كل أبعاده وقيمه، لقد كشفت عن حقيقته الإنسانية وضعفه أمام أضعف المخلوقات، كما بينت أن العصرنة والتباهي بالتطور والتقدم العلمي والطبي لم يصل إلى الحد الذي يشعر الإنسان بالأمان والقوة والسيطرة، لقد أيقظت هذه الأمراض والمشاكل الاجتماعية الجديدة الإنسان من سباته، كما دفعت الإنسان لأن يفكر أكثر في بشريته وجنسه، ويبتعد عن الأنانية والغطرسة، وكشفت عن الوجه القبيح للعولمة والامبريالية والليبرالية المتوحشة، وأعادت طرح أسئلة العلاقة بين الإنسان وذاته وبين الإنسان وغيره، والإنسان وأخلاقه، فيما سمي بالبيوإطيقا، وبين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وبيئته وعقله وعلمه....الخ، إن الخوف واللاأمن جعل الإنسان يعيد كثير من حساباته، وكما يقول باومان:"إن الأمان هو عنوان اللعبة في عالم غير آمن فالأمان هو الغاية الرئيسية من اللعبة ومكافأتها الأسمى إنه قيمة تقزم عمليا إن لم يكن نظريا، وتدفع كل القيم الأخرى بما فيها تلك القيم الأحب والأكثر بغضا لديهم، ولهذا السبب أفصحوا عن السبب الرئيس لرغبتهم بإيذائنا في عالم متزعزع كعالمنا"(زيجمونت باومان، ص319-320) من هنا يصل زيجمونت باومان ليصف لنا بدقة الحياة السائلة في زمن الحداثة السائلة التي تحول فيها الخوف من خوف صلب إلى خوف سائل، إنه أكثر خطرا على الفرد والمجتمع والقيم، إنه الدمار الذاتي لكل هؤلاء، إنه إحدى مخلفات الحداثة المتغولة التي التهمت كل ما يرتبط بالإنسان من قيم عليا سواء أكانت اجتماعية أم ديني لقد لهثت العولمة والحداثة إلى إنتاج وضع بشري وإنسان حديث يفتقد إلى القيم الجمالية والخير والحب والسلام، لقد أعلنت الحرب على الإنسان، بما أنتجته من مغريات ومعطيات لقد تجاوزت إنتاج الأسلحة النووية الفتاكة، إلى إنتاج إنسان مدمر، والى إنتاج أسلحة دمار شامل لكل الشعوب والأمم، إنه السلاح البيولوجي الذي لا يميز بين البشر، ولا يمكن التحكم فيه، وهذا ما زاد من خوف الإنسان وشعوره باللاأمن، يقول باومان في ذلك "فما أن يحل الخوف بالعالم الإنساني، فإنه

يكتسب قوته الذاتية الدافعة ولا يتطلب منطق تطوره اهتماما يذكر وقلما يحتاج لأي استثمار إضافي حتى ينمو وينتشر، بل لا يمكن إيقافه، فالخوف من الخطر ليس الطامة الكبرى، بل امتداده وتحوله، فالحياة الاجتماعية تتغير عندما يعيش الناس خلف الأسوار ويستأجرون الحراس ويقودون سيارات مصفحة، ويحملون الأسلحة ويحضرون دورات تدريبية في فنون القتال وتكمن المشكلة في أن هذه الاحتياطات تعيد تأكيد الشعور بالخلل، بل إنها تساعد على توليد هذا الشعور"(زيجمونت باومان، ص32-33).

ويزداد الخوف يوما بعد يوم، انه شعور متزايد نتيجة لما يفرضه الواقع الاجتماعي المعيش فلا يمكن التخلص من هذا الخوف السائل، بل إنه أصبح جزء من حياتنا اليومية، إنه يتبعنا في كل لحظة من لحظات حياتنا، في الشارع وفي البيت، وفي محلات البيع، ومطاعم الوجبات السريعة، إننا نخاف أن نلمس شيء فيه جراثيم فتاكة وفيروسات قاتلة، إننا نخاف أن نأكل وجبات سريعة بها مواد مضافة تتسبب في السرطانات بكل أنواعها، أصبحنا نخاف أن نصافح أو نعانق، أصبحنا نخاف من الإشعاعات في الهواتف الذكية والتلفزيونات وأجهزة الكومبيوتر ومواقع التواصل الاجتماعي، أصبحنا نخاف من المواد المنظفة، ومن الأغذية واللحوم المعدلة وراثيا، أصبحنا نخاف من المواد المعاد رسكلتها، أصبحنا نخاف حتى من الهواء الذي نتنفسه إنه الخوف السائل بل الرهاب الذي فرضته العولمة والحداثة على الإنسان الذي أنتجها، باحثا عن السعادة والرفاه والأمن، وهكذا " تدفعنا المخاوف إلى القيام بفعل دفاعي، وعند القيام به فإنه يحول الخوف إلى وجود مباشر ملموس، فاستجاباتنا هي التي تعيد صياغة الهواجس المخيفة باعتبارها واقعا يوميا يجسد كلمة الخوف المجرد، فلقد استقر الخوف الآن بالداخل وهو يتسرب إلى أنشطتنا اليومية المعتادة، وقلما يحتاج إلى مثيرات أخرى من الخارج فالأفعال التي يولدها يوما بعد يوم مستمدة بكل الدافعية والطاقة التي يحتاجها لإعادة توليد نفسه، وربما يكون التوليد الذاتي لفخاخ الخوف والأفعال المنبعثة من الخوف هو أهم الآليات المتنافسة على الاقتراب من النموذج المثالي للآلة الخيالية التي لا تتوقف أبدا ما إن تبدأ حركتها"(زيجمونت باومان، ص33).

وهنا نجد زيجمونت باومان بعقلية عالم الاجتماع المتمرس والفيلسوف المفكر يحلل هذه الظاهرة وفقا لمعطيات الحداثة ويقوم بتشريح هذا الواقع المخيف المرعب عندما يقول: "وهكذا ننشغل بتحديد "العلامات السبع للسرطان" و"الأعراض الخمس للاكتئاب" أو ننهمك في طرد الروح الشريرة التي يمثلها كل من ضغط الدم المرتفع، وزيادة نسبة الكولسترول والتوتر والسمنة، إننا نبحث عن أهداف بديلة حتى نفرغ فيها فائض الخوف الذي لا يجد منافذ طبيعيه... فكل قفل إضافي نضعه على باب الدخول بسبب الشائعات المتوالية عن المجرمين وكل تعديل للنظام الغذائي...يجعل العالم أكثر إثارة للهلع، وقد يزيد الناس تحفزا للدفاع والاحتراس، وهذا يزيد للأسف من المقدرة التوليدية الذاتية للخوف"(زيجمونت باومانص35)والأكثر من ذلك لا حظ باومان أن هذا الخوف واللاأمن اليوم أصبح يدر أموالا طائلة على الشركات العملاقة التي أبدعت في إنتاج كل ما يطلبه الإنسان لمحاربة خوفه والأموال التي تستفيد منها تعيد بها إنتاج الخوف من جديد، حتى تستمر في البيع والأرباح ولقد أطلق باومان على أموالها رأس مال الخوف، وهنا يقول: "فالخوف موجود وهو يتسرب إلى الوجود الإنساني اليومي، بينما يتوغل الاقتصاد الحر

في أساساته، وتتداعى الحصون الدفاعية للمجتمع المدني، فالخوف موجود، ويبدو أن وفرته لا تنتهي...واقع الأمر أن استغلال رأس مال الخوف أمر ثابت تماما، بل هو تقليد يعود إلى السنوات الأولى للهجوم الليبرالي الجديد على الدولة الاجتماعية"(زيجمونت باومان، ص40)، كما يؤكد باومان أن الخوف هو السبب في انتشار ظاهرة العنف والإرهاب، سواء الداخلي أو الدولي ومنها الحروب، ولقد أكد أن كثير من الحروب كان سببها الخوف من الإرهاب كما حدث في العراق وأفغانستان، وبالمقابل يرى باومان أن المجتمعات والأمم لم تعد تتحكم في الحاضر وهذا هو السبب الرئيس لخوفها من المستقبل، لقد أفلت منا الحاضر بما أحدثته العولمة من تسارع رهيب في نقل التكنولوجيا والمعلومات ورؤوس الأموال، مما جعل المستقبل غير واضح أمام البشرية، وهذا ما يولد خوف عام، وضبابية مفرطة لقد "ولدت المخاوف ذات الطابع الحديث في أثناء الجولة الأولى من تحرير السوق وسيرورة النزعة الفردية، في وقت انفكت أو تقطعت فيه روابط القرابة والجيرة، روابط كانت متينة تعتصم بحبل الجماعة والثقة روابط كانت تبدو أبدية لكنها عاشت على أي حال منذ زمن بعيد، فكان النموذج الحديث الصلب لإدارة الخوف يميل إلى إحلال الروابط المصنوعة محل الروابط الطبيعية التي دمرت تماما، واشتملت هذه الروابط المصنوعة النقابات والاتحادات والكيانات الجمعية...كان أفول ذلك التضامن ينذر بنهاية النموذج الحديث الصلب لإدارة الخوف" (زيجمونتباومانص86)لقد افتقد الإنسان المعاصر لتلك الروابط التي تشعره بالأخوة والمحبة والتسامح حيث كان لا يأبه للأمور الاحترازية في بيته ومجتمعه وحتى عمله، لكن تحولات الحداثة جعل الخوف ملازم للإنسان كضله، فافتقد للسعادة وللعلاقات الإنسانية، وتفككت الروابط وذابت القيم"إن المجتمع الحديث السائل هو أداة تحاول أن تهون من صعوبة الحياة مع الخوف، فإذا كانت الحداثة الصلبة قد اعتادت أن تغزو المخاوف واحدا تلو الآخر، فإن الحداثة السائلة تكتشف الآن أن الصراع ضد المخاوف هو مهمة مدى الحياة"(زيجمونت باومان، وديفيد ليون،2017، ص107).

خاتمة:

والنتيجة التي يصل إليها باومان من تحليله السوسيولوجي لظواهر الحداثة السائلة، أن زمن الحداثة الغربية بكل ما تحمله من أفكار ومشاريع حاولت الخروج بالإنسان من الخضوع إلى السيادة والسيطرة، حيث استطاع أن يسيطر على الطبيعة، وان يتحرر من كثير من الحتميات الذاتية والخارجية، وأن يخطو خطوات عملاقة في سلم الحضارة مكتشفا بذلك قدراته الخارقة، وموظفا ايهاها لصالحه، إلا أن ذلك أدى بالمقابل إلى تراجع الإنسان والإنسانية في سلم القيم والأخلاق، حيث طغت المادة والرأسمال الفاحش، واحدث هوة بين من يملكون ومن لا يملكون، فظهر الصراع والحروب، وزاد تمرد الإنسان وطغيانه، وأراد أن يصبح إلها، متجبرا، مؤمنا بالعلم والعقل، وهذا ما خلق بالمقابل انهيار منظومة القيم، وتراجع الإنسانية، وفقدان الشعور بالذات والآخرين، وانهيار مقومات الحضارة، فأصبح هناك عنف ممنهج وإرهاب متوحش، وحياة سائلة تفتقد للقيم الجمالية والإحساس بالوجود، وثقافة مائعة تتحكم فيها قيم الاستهلال،

وأصبح الزمن سائلا بما يعرفه من تسارع وتغيرات، ولهذا أصبح الخوف واللاأمن هما الصفتان السائدتان في مجتمع الحداثة كنتيجة حتمية.

وعليه يمكن أن نقول أن الخوف السائل ارتبط بالحداثة، وأنه ملازم لنا في حياتنا اليومية، وهو يزداد يوما بعد يوم، نظرا لزيادة طرق التهديد للإنسان والمجتمعات، سواء أكانت فردية أم جماعية وسواء من الطبيعة، أم من الإنسان ذاته، وما ينتجه يوميا، خاصة وأن إنسان الحداثة والعولمة لم يعد يفكر إلا بلغة الأرقام والأرباح والأسهم، لقد تجاوز الإنسان اليوم التفكير في القيم والأخلاق والإنسانية بقدر ما يفكر في الرفاه والتقدم والمتع حتى ولو أدى ذلك إلى زوال الإنسانية، لقد أصبح إنسان الحداثة مجرد رقم في أسهم المضاربين الرأسماليين الجشعين، وأصبح العلم تابعا للسلطة والمال، ولذا يرى باومان أن أدنى تحدي للبشرية يضعها على المحك، كتحدي فيروس كرونا اليوم، وعليه لا بد من مراجعة كل القيم التي فرضتها العولمة والحداثة، والبحث عن مستقبل أفضل للبشرية التي تسير في اتجاه مجهول.

إن الخوف لا يولُد إلا الخوف والعنف والإرهاب، إنه يحُد من العلاقات، ويقضي على التعاملات الإنسانية، إنه يزداد يوما بعد يوم، مما يؤدي إلى الشعور باللاأمن، إننا نموت في اليوم ألف مرة كما قال باومان، إننا نبتعد عن إنسانيتنا وقيمنا وأخلاقنا وديننا، إننا نحارب من أجل حياة أفضل، لكن علينا بالمقابل أن نراجع كل معطيات الحداثة، وأن نخضعها للإنسان، ونجعلها تابعة لا متبوعة، نحن من يصنع الحداثة وليست هي من تصنعنا، لقد حققت الحداثة قفزة نحو الأمام عندما أخرجت الإنسان من قدر أعمى كما عبر عن ذلك باومان، لكن لتقذف به في خوف أكبر، إنه الخوف المرتبط بالألم عند الإنسان، ذلك أن الإنسان يتألم وأكبر ألم فيه هو أنه كائن عاقل واع مبدع، فخوف الحيوان غريزي، أما خوف الإنسان فواع صادر عن شعور وقلق، إن إنسان الحداثة أصبح أكثر احترازا من غيره، لقد أصبح ينظر إلى العالم الخارجي على أنه خطير، وفيه تبث أروع المخاوف والرعب، مما قاده إلى الانزواء والعزلة، وهذا بدوره ولد لديه مخاوف أكبر وأمراض وعقد، إنه اليوم أكثر من أي وقت مضى يجد نفسه فعلا بين المطرقة والسندان.

فلا بد من مراجعات تتم على مستوى الوعي بالحداثة ومعطياتها، والعولمة وطبيعتها علينا أن نسعى للتحرر الإيجابي الذي يقود الإنسان إلى الارتقاء بإنسانيته، لا أن يعود به القهقرى، فالحضارة ليست ما ننتجه من وسائل وأشياء، بل ما نزرعه من قيم وأخلاق، إن التطور الذي يجب أن يكون هو الذي يوازي بين الإنسان وذاته ومجتمعه وأخلاقه وبيئته ينطلق من معطيات الماضي ليؤسس للحاضر بنظرة استشرافية إلى المستقبل، يحفظ فيه الإنسان وجوده وحق الأجيال القادمة، متخلصا من غرائزه التدميرية وسلوكه العنيف وأنانيته المفرطة، مراجعا في نفس الوقت سلم القيم التي تتبني عليها حضارته وثقافته وإنسانيته.

وكما يقول باومان "إذا كان جوهر الحداثة في مرحلة الصلابة يتمثل في التحكم في المستقبل وتثبيته، فإن شغلها الشاغل في مرحلة السيولة إنما يتمثل في ضمان استقلال المستقبل وحريته، ودرء التهديد الذي يمثله أي استغلال مبكر للفرص الخفية المجهولة التي ربما يأتي بها المستقبل، أو التي لا بد من أن يأتي بها"(زيجمونت باومان، ص28).

قائمة المراجع:

1.باومان زيجمونت(2014)، الحداثة والهولوكوست، ترجمة حجاج أبو جبر، ط1، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة.

2.باومان زيجمونت(2017)، الأزمنة السائلة، العيش في زمن اللايقين ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

3.باومان زيجمونت(2016)، الحياة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت،(الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

4.باومان زيجمونت(2017)، الخوف السائل، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

5.باومان زيجمونت(دس)، الحرية ترجمة فريال حسن خليفة، مراجعة محمد سيد حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة.

6.باومان زيجمونت(2016)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعد البازعي وبثينة الابراهيم، (الإمارات، دار كلمة.

7.باومان زيجمونت(2017)، وديفيد ليون، ، المراقبة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

8.سكوت جون(2009)، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المعاصرون ، ترجمة محمود محمد حلمي مراجعة جبور سمعان، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت.

9.العلوي رشيد، يناير 2017، زيجمونت باومان من الحداثة الصلبة إلى الحداثةالسائلة، تم استرجاعها في تاريخ 2020/04/04 منالموقعالالكتروني(https://aawsat.com/home/article/828101)

10.ويكبيديا، يناير،2009 زيجمونت باومان، تم استرجاعها في تاريخ 2020/04/04 من الموقع الالكتروني (https://ar.wikipedia.org/wiki)